الأختام المنبسطة المبكرة في منطقة أعالي بلاد الرافدين
رؤى وتفسيرات جديدة

م. د. جمعة حريز الطلبي
جامعة بغداد – كلية الآداب

الملخص

غالبًا ما عدّت الأختام المنبسطة على أنَّها نوعٌ من المصنوعات اليدوية التي تؤشر الرؤى حول الممارسات الإدارية القديمة، وطرائق مراقبة وتوزيع البضائع. فهي أدواتٌ مفيدةٌ في تنظيم عملية التخزين وفي التحكم في شبكات التبادل، فضلاً عن أنَّها تعكس الرقابة الإدارية. لذا فإنَّها استعملت للدفاع عن وجه النظر القائلة بوجود أنظمة الختم لإدارة وتخزين الممتلكات الشخصية أو الجماعية وربّما العلاقات التجارية في العالم القديم. وقد كان ظهورها الأول في أواخر العصر الحجري الحديث. إلا أنَّه يمكن القول: إنَّ هذه القطع الفنية الجميلة لم تدرس دراسةً وافيةً أو تفسّر بشكلٍ شاملٍ في سياقها الخاص.

الكلمات المفتاحية: الأختام المنبسطة، أعالي بلاد الرافدين، العصر الحجري الحديث المتأخر، الإدارة، التعويذات أو التمائم.

Al Malweah for Archaeological and Historical Studies, Vol 9, Issue 28, May 2022
P-ISSN: 2413-1326 \ E-ISSN: 2708-602X

The Early Stamp seals of Upper Mesopotamia New Visions and interpretations

Dr. Jumaah H. Altalabi
University of Baghdad- College of Arts
jumaahhariz@coart.uobaghdad.edu.iq

Abstract

The Stamp seals were often thought of as a type of artifact that signaled Visions into ancient administrative practices, and methods of controlling and distributing goods. They are useful tools for organizing storage and controlling exchange networks, in addition, it reflects administrative control. It was therefore used to defend the view that seal systems existed for the management and storage of property, personal or collective, and possibly commercial relationships in the ancient world. It first appeared in the late Neolithic period. However, it can be said that these beautiful pieces of art have not been thoroughly studied or comprehensively interpreted in their own context.

Keywords: Stamp Seals, Upper Mesopotamia, The Late Neolithic, Administration, Talisman or amulets.

المقدمة

انتشرت الأختام المنبسطة على نطاقٍ واسعٍ في العالم القديم منذ أواخر العصر الحجري الحديث، وهي أشياءٌ صغيرةٌ، عادةً ما تكون حجريةً، ذات زخرفةٍ هندسيةٍ منقوشةٍ. وغالبًا ما ارتبطت بالهوية الشخصية أو بالمؤسسية والإدارة. إلا أنَّ مع توسع الدراسات الأثرية والفنية ظهرت توجهاتٌ حديثةٌ تحاول أنْ تربط هذه الأختام مع أغراضٍ أخرى مثل: العناصر السحرية أو الأدوات الدينية أو الأشياء الجمالية البحتة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تقديم تفسيرٍ ورؤيةٍ مغايرةٍ وإثبات وجودٍ قليلٍ من الأدلة على استعمال الأختام في أواخر العصر الحجري الحديث لأغراضٍ إداريةٍ، إذ لا يوجد دليلٌ على اشتراك الأختام في العلاقات التجارية في هذه المرحلة في منطقة أعالي بلاد الرافدين، ومن غير المحتمل أنْ تكون الأختام قد استعملت لتحديد الهويات داخل المستوطنات من الأشخاص أو العائلات، إذ لا يوجد تنوعٌ كافٍ أو أدلةٌ إيجابيةٌ. وربّما تعكس بطرائق متنوعة الهويات قصيرة المدى باستعمالها بوصفها تميمة وتعويذة، وربما تؤشر وبفعاليةٍ اللغة الرمزية المشتركة، ولاسيما مع قلة الأشياء التي يمكن ختمها في بقايا المواقع الأثرية القديمة مثل الأربجية. إنَّ ما تحمله هذه الأختام من زخارف لم تكن ذات طابعٍ فرديّ، لذا من المحتمل أنَّها ترتبط بمعنى اجتماعي أو ديني غير معروفٍ، أو أنَّ ما تحمله من رموز له أهميةٌ دينيةٌ، أوقد تكون مرتبطةً بـ " النضال" لزيادة السيطرة البشرية على الموارد الطبيعية.

التمهيد:

يقع العصر الحجري الحديث المتأخر بين الحجري الحديث قبل الفخار (من ١٠٠٠٠ قبل الميلاد)، والذي يحوي أصول الزراعة المستقرة والعصر النحاسي المتأخر (من نحو ٤٠٠٠ قبل الميلاد)، والذي يشتمل على نشوء المدينة وظهور الدول المبكرة. وهي مرحلةٌ مهمةٌ لها سماتٌ رئيسةٌ وثابتةٌ ومعروفةٌ في كلّ المنطقة، في تقنيات تصنيع الحجارة اللازمة للصيد والأدوات الأخرى، والتعميم شبه التام للعمارة مستطيلة الشكل، مع انتشار الزراعة والتدجين على نطاقٍ واسعٍ بوصفهما مصادر أساسية للغذاء، فضلاً عن ظهور طقوسٍ وفنونٍ جديدةٍ منها الأختام المنبسطة[1].

وقد أوضحت أعمال البحث والتنقيب المكثفة في أواخر الثلاثين سنة الماضية في منطقة أعالي بلاد الرافدين أنَّ أوجه التشابه المادية المرئية في أواخر العصر الحجري الحديث لا تمثل مجتمعًا ثقافيًا مغلقًا، ولكنها تعكس بدلاً عن ذلك شبكةً من المجموعات غير المترابطة التي كانت أعضاء في مجتمعاتٍ مفترضةٍ ربطت الناس في داخل علم الكونيات المشترك[2].

وتشمل هذه المرحلة المتأخرة ثقافات العصر الحجري الحديث الفخاري مثل: حسونة، وسامراء، وحلف، والمرحلة الانتقالية حلف–العبيد، وأوائل العبيد الشمالية[3](خريطة رقم :١). وشغل الاستيطان في هذا العصر بأدواره المختلفة أجزاءً واسعةً من منطقة أعالي بلاد الرافدين مثل: وادي سنجار في شمال العراق، ووادي البالخ في شمال سوريا، ووديان نهري دجلة والفرات في جنوب شرق تركيا. ويعدّ مصطلح العصر الحجري الحديث المتأخر مصطلحًا جديدًا نسبيًا يغطي مجموعةً من الثقافات الأثرية المنفصلة تقليديًا، ويُنظر إليها على أنَّها مرحلةٌ انتقاليةٌ بين الاستقرار والزراعة في العصر الحجري الحديث وظهور مجتمعات " الدولة" المبكرة في العصر الحجري النحاسي كما أشرنا. ويرتبط هذا المفهوم ارتباطًا وثيقًا بقصة التقدم (بالمعنى الحداثي/ العملي لزيادة التعقيد) في عصور قبل التاريخ في الشرق الأدنى القديم[4].

وقد عرفت الأختام المنبسطة في منطقة أعالي بلاد الرافدين منذ الألف السابع ق.م في شكل أختام الطبعات على الطين كما في جرمو، ثم شاع استعمالها في عصري حلف والعبيد. والأختام أشياءٌ صغيرةٌ، عادةً ما تكون حجريةً، ذات زخرفةٍ هندسيةٍ أو محززةٍ. وغالبًا ما تفسر على أنَّها أشياءٌ إداريةٌ، في حين تغفل الوظائف والأدوار الأخرى التي يمكن أنْ تكون قد أدّتها[5].

الرؤية التقليدية لوظيفة الأختام المنبسطة المبكرة

تعدَّ الأختام، فنًا وصناعةً وموضوعًا من المرتكزات الأساسية لدراسة أوجه الحضارة لبعض المراكز الحضارية القديمة. وتكمن أهميتها في أنَّها تحمل صورًا عن نشاط الإنسان في حياته اليومية; المدنية والدينية، وهي توثّق صورةً من صور التبادل الفكري والاقتصادي. وربّما تكون الأختام المنبسطة قد اشتقت من الدلاية أو التميمة، وقد تكون الزخرفة التي تحملها الوجه بمثابة التوقيع لمالك الختم. وتعلو ظهر الختم حدبةٌ صغيرّة مثقوبةٌ؛ لغرض وضع خيط للتعليق، وأكثرها يشبه الأزرار، لذا أطلق عليها اسم الأختام على شكل الأزرار(Button –Seals)[6] (الشكل رقم:١).

وترتبط هذه القطع الصغيرة المتنوعة الأشكال وفقًا للفهم التقليدي الرئيس ارتباطًا ضمنيًا بالهوية الشخصية أو بالمؤسسية والإدارة[7]. إذ إنّها تمثّل حاجة السكان المتنقلين لإدارة وتأمين ممتلكاتهم الخاصة في بيئةٍ مجتمعيةٍ محددةٍ. وقد عثر على مجموعاتٍ متنوعةٍ من هذه الأختام وبأشكالٍ مختلفةٍ في معظم أنحاء العالم. وهناك اختلافاتٌ شاسعةٌ بين الثقافات المختلفة جميعًا وأنظمة الختم الخاصة بها من الناحية الاجتماعية. ومع ذلك، فإنَّ لهذه الأختام في معظم الأحوال وظيفةً ترتبط بالممارسة الإدارية وإدارة حركة البضائع والأشياء[8]. ومع تنوع الاستخدامات الإدارية بشكلٍ كبيرٍ في السياقات الفردية، إلا أنَّ الافتراض السائد ومنذ مدةٍ طويلةٍ أنَّ مجرد وجود الأختام يدلّ على الإدارة [9]. وممّا يُؤسَف له أنَّ أغلب مَنْ أقرَّ بهذه الوظيفة للختم المنبسط لم يذكر كيف تكون هذه الممارسة في السياق العام الاقتصادي والاجتماعي وحتى السياسي. إنَّ ما يقصد بالإدارة هنا هو كلَّ ما يرتبط عادةً بالمؤسسات وإعادة التوزيع، وإنْ كان هذا تحديدٌ غير وافٍ. فالإدارة هي مجرد إجراءٍ لإدارة شيءٍ ما، تقليديًا لأسبابٍ اقتصاديةٍ أو "عمليةٍ ". وعادةً ما تبني الأشياء أو الممارسات؛ لأنّها مفيدةٌ للمجتمع[10]، ومنه مثلاً نظام إعادة التوزيع في المعبد، وختم الأشخاص لممتلكاتهم الخاصة لمنع العبث بها. وعلى هذا النحو، فإنَّ التقسيم الواضح التقليدي من بعض العلماء في تفسيرهم لمعنى الأختام المتأخرة من العصر الحجري الحديث على أنَّها أدواتٌ لختم الممتلكات الخاصة، وأنَّ التطور اللاحق للختم الإداري من المؤسسات والنخب ما هو إلا تقسيمٌ دلاليٌّ[11].

ولا يوجد تمييزٌ بين الممارسات المتضمنة في الختم لضمان البضائع في الأسرة أو المجتمع أو مستوى التسلسل الهرمي المؤسسي، إذ إنَّ المقياس أو المعيار هو الذي يختلف وليس الفعل. وعلى هذا النحو، فإنَّ أيّ تفسيرٍ للختم بوصفه ممارسة اقتصادية أو عملية هو أمرٌ إداريٌّ بحكم الواقع[12].

ويمكن أنْ نحدّد باختصارٍ بعض الممارسات الإدارية التي تندرج ضمن وظائف الختم مثل: ختم البضائع لضمان التداول الداخلي أو ما يعرف بعملية (إعادة التوزيع)، وختم البضائع للتداول الخارجي(التجارة)، وكذلك "الختم" لضمان صحة الوثيقة (العقود)، والختم لتسجيل فعلٍ إداريّ (إثباتٍ أو إيصالٍ أو معاملاتٍ). وإنْ كانت الوظيفة الأخيرة ترتبط بتطور الكتابة لذا فإنّها لا تندرج ضمن وظائف الأختام المنبسطة. وترتبط الوظيفتان الأوليتان بالحماية والتحكم، لذا قدمتا أنواعًا مدهشةً من الأختام. في حين ترتبط الوظيفتان الأخيرتان نظريًا بحفظ السجلات لذا فإنَّهما قدمتا طبعات مبهرة على الألواح الكتابية [13]. ويعدّ الباحث ماكس مالوان من أوائل الباحثين الذين قدّموا هذه الرؤية التقليدية لتفسير الأختام المنبسطة، والذي يرى أنَّ هذه القطعة الصغيرة التي تعلّق في الرقبة، والتي يحمل أغلبها علامات مختلفة، يجب أنْ تكون قد استعملت بوصفها علامات تعريفٍ تشير إلى الملكية الفردية، وتحديد الهوية، وأنَّ هذه الخدوش الغامضة كانت أقرب إلى طريقة الكتابة التي قام بها سكان منطقة الأربجية الأوائل[14](الشكل رقم :٢).

وعلى وفق هذا الفهم فإنَّ هذه الأختام تشكل أدواتٍ تعمل على حماية المواد المخزونة والبضائع المستعملة في التجارة من التلاعب بها أو تزيفها أو تبديلها أو أخذ جزءٍ منها من دون معرفة ذلك. وقد عثر على الكثير من الصناديق والأوعية والآنية التي تحمل طبعات هذه الأختام. وعادةً ما تكون هناك موادٌ ثمينةٌ في الأوعية والآنية فخارية، لذا تغطى فوهتها بقطعةٍ من القماش أو الجلد وتربط بسلسلةٍ أو حبلٍ حول العنق، وغالبًا ما يكون الربط بين الفوهة والكتف ويوضع الطين الطري حول الرقبة ويدحرج الختم في الاتجاهات جميعًا، وقد كان من الصعب والمستحيل التلاعب بمحتوى الجرة من دون كسر طبعة الختم[15].

وظائف متعددة، رؤية جديدة، تفسير منطقي

تفتقر مجتمعات الحجري الحديث المتأخر إلى مؤسساتٍ إداريةٍ أو إلى وجود نخبٍ تدير الشؤون العامة، لذا فإنَّ السؤال هو: هل يشكل التهديد الضمني لمحتوى الختم، بكونه وسيلة لحماية الممتلكات، في مجتمعاتٍ تفتقر إلى المؤسسات الرسمية القوية؟. وهل يكون هناك سببٌ للثقة في أنَّ التهديد الضمني الموجود في الختم من شأنه أنْ يردع عمليات التلاعب؟. إذ إنَّه حتى في مجتمع الدولة تتطلب عملية جعل النظام الإداري جديرًا بالثقة، تتطلب التكرار والشكلية، ويجب أنْ تكون في الأساس ممارسات اعتيادية حقيقية إلى درجةٍ معينةٍ. ولا يمكن التداول بشأن ممارسات الختم كما لو كانت كذلك، فمن غير المرجح أنْ يثق الناس ويعتمدون على النظام الذي يقوض وظائفه بشكلٍ أساسٍ[16].

لذا فإنَّه في ظل غياب أيّة آليةٍ ماديةٍ، مثل الممارسات الرسمية لضمان الإيمان بمصداقية النظام، يجب أنْ يعتمد على العلاقات بين الأفراد، وهنا يمكننا أنْ نسأل: لماذا يزعج هؤلاء الأشخاص أنفسهم بممارسات الختم الإدارية؟. ولا يوجد سببٌ للشكّ في قيام الناس بإنشاء أنظمةٍ إداريةٍ لمجرد نزوةٍ. إلا أنَّ الرؤية المنطقية تجعلنا لا نعتقد أنَّ أنظمة الختم التي لا تحوي عناصر انتظام أو شكليات يمكن أنْ تكون إداريةً بالمعنى الاقتصادي فقط.

وتشير الدلائل إلى أنَّه لا يوجد دليلٌ على الإدارة المؤسسية أو سيطرة النخبة في العصر الحجري الفخاري المتأخر كما ذكرنا أعلاه. وبدلاً عن ذلك، يمكن أنْ يفسّر نظام الختم على أنَّه يمثل حاجة السكان المتنقلين لإدارة وتأمين ممتلكاتهم الخاصة في بيئةٍ مجتمعيةٍ محددةٍ [17].

ونشير هنا إلى أنَّ الكثير من أختام هذه المرحلة لم يكن لها قيمةٌ كبيرةٌ بوصفها عناصر للتحكم في الوصول إلى القيمة الاقتصادية للبضائع، أولاً: لأنَّ هناك الكثير من الأختام بالقياس على القلة من طبعاتها، وثانيًا: أنَّ التصاميم كانت "متشابهةً جدًا بحيث يتعذر تمييزها فعليًا"، وثالثًا: عادةً ما حُطّم الختم الواحد وأعيد نقش مركزه لإخفاء الشكل(الشكل رقم : ٣). لذا فإنَّ التفسير البديل يشير إلى أنَّ: " الختم نفسه ربما كان أكثر أهميةً من الشكل المنحوت على سطحه، ممّا يشير إلى قدرته الرمزية في تجنب الشر أو الحظ السيء، أو على الأقل له قيمةٌ زخرفيةٌ أكثر ممّا هي قيمةٌ اقتصاديةٌ ". وربّما يحلّل هذا التفسير المهم الأختام المتأخرة من العصر الحجري الحديث في سياقها الخاص بدلاً عن محاولة ملاءمتها لموضوع الإدارة. وعند النظر في مزاياها الخاصة، فإنَّ هناك أسبابًا قويةً للتشكيك في التحديد التقليدي بخصوص الإدارة والسيطرة [18].

وقد تنوعت أغراض واستعمالات الأختام، ويمكن ملاحظة أنَّ هذه الأغراض ليست متعارضةً، وأنَّ العديد منها يتعلق بجوانب مختلفة من الهوية بشكلٍ أو بآخر. لذا من المحتمل أنْ تكون معاني الأختام المتأخرة من العصر الحجري الحديث متعددة الأوجه، اعتمادًا على مَنْ يفسرها وفي أيّ سياقٍ. لذا فإنَّ اقتراح أسبقية الاستعمال الإداري يعني تجاهل تعدّد المعاني ودور الهوية في تفسيرها، ولأجله فإنَّ تفسير ممارسات الأختام المنبسطة على أنَّها إداريةٌ بحتةٌ من المحتمل أنْ يكون غير صحيحٍ[19] .

ويوضّح هذا التعدّد في المعاني أنَّ الاستعمالات الإدارية متشابكةٌ بشكلٍ وثيقٍ مع الأغراض السحرية والأيديولوجية، ضمن بيئةٍ غنيةٍ من الممارسات والمعتقدات الاجتماعية. ولعل من أبرز الوظائف والأدوار التي يمكن أنْ تنسب لهذه الأختام أنَّ لها القدرة على تجنب التأثيرات الشريرة أو سوء الحظ، إذ يمكن الإشارة إلى الجوانب السحرية التي ينسب إليها المستخدمون

خصائص خارقة بغض النظر عن مصدر تلك الخصائص[20]. ويمكن تلمس دور السحر في العديد من هذه الأغراض المحتملة المتنوعة، فهو موجودٌ في كلّ مكانٍ، كما هو الحال في الأشياء التي تُنسب إليها خصائص فائقة الطبيعية، ويجب أنْ نشير إلى أنَّه في العديد من السياقات، فإنَّ الخصائص التعويضية للأختام لها على الأقل دورٌ مساوٍ لدور الإدارة. ويمكن الإشارة الضمنية إلى مثل هذه الأمور; فمثلاً عند القيام بإغلاق إناءٍ أو جرةٍ تحوي جنيًا، أو فم تمثالٍ، فإنَّ مَنْ يقوم بهذا يتحكم في عملية الوصول، ولكن بمنع شيءٍ ما من الخروج. وبواسطة تغطية فتحة جسمٍ يحوي موادًا قويةً، فإنَّنا لا نقوم بإغلاقه لمنع العبث؛ لأنَّ البضاعة بالضرورة ذات قيمةٍ ماديةٍ، ولكن لأنَّها تحتاج إلى أنْ تتفاقم بطريقةٍ سحريةٍ في حالةٍ متشابكةٍ. ولا يوجد فرقٌ جوهريٌّ بين إنشاء الانطباعات والختم لأغراضٍ إداريةٍ أو أغراضٍ سحريةٍ باستثناء الحجم والشكليات[21](الشكل رقم :٤).

ونتعامل هنا مع الأدوار السحرية المفترضة لهذا النوع من الأختام المنبسطة، ويمكن فعل الختم نفسه أنْ يكون عملاً قويًا، ويمكن أنْ تكون الأختام المحددة مشحونةً أيديولوجيًا وتستعمل لإضفاء الشرعية المؤسسية، أو أشكالٍ أخرى من البناء الأيديولوجي، ويمكن أنْ تعبّر عن هويات المجتمع في تلك المرحلة، وغالبًا ما يكون لها أغراضٌ أخرى: سحرية أو أدوات دينية أو أشياء جمالية بحتة، وهي يمكن أنْ تعطينا أيضًا معلوماتٍ حول الاهتمامات والتفضيلات وحتى معتقدات هذا المجتمع. إذ يبدو أنَّ تصميمات الأختام تشير إلى لغةٍ رمزيةٍ مشتركةٍ فوق الإقليمية[22].

وكما أشرنا في البداية فإنَّ الأختام يمكن أنْ تكون تمائم أو تعويذات أو مظاهر أيديولوجية، وغالبًا ما يستعمل هذا المصطلح من دون تفريقٍ. عمومًا أنَّ لكلّ منهما قوى سحرية، ولكن التميمة هي جهازٌ مصممٌ للحماية بوسائل سحرية، في حين أنَّ التعويذات هي أشياء يمكن تشبعها بقوةٍ سحريةٍ وإشعاع القوة المذكورة[23] (الشكل رقم : ٥).

ويبدو أنَّ أختام هذه الحقبة قد تطورت من أختام العصر الحجري الحديث، وأنَّها قد استولت على فعاليتها السحرية/ الأجداد/ الأسطورية، لذا وظفتها مؤسسات المعابد في أواخر العصر الحجري النحاسي على سبيل المثال، ويبدو أنَّها هيمنت على المؤسسات في العصر الحجري النحاسي المتأخر. ويمثّل هذا التخصيص على الأرجح تطورًا بسيطًا؛ لأنَّ استعمالات المواد وممارسات الختم في المقام الأول، متطابقةٌ تقريبًا، ولكن الإطار المرجعي قد تغير عن أحداثٍ معينةٍ من الختم المعزول إلى ممارساتٍ مؤسسيةٍ رسميةٍ. وكان من الممكن أنْ يظل

مصدر فعالية الأختام كما هو في كليهما، ومع ذلك، فإنَّ بعض أشكال القوة الأعلى، وربما عناصر الأجداد في أواخر العصر الحجري الحديث والآلهة المتجسدة في العصور اللاحقة[24].

ومن بين الجوانب التي تغفل عادةً عند دراسة هذه الأختام الناحية الجمالية، إذ إنَّ هذه الأختام غالبًا ما تكون جميلةً وقيمةً وسهلة النقل ومرغوبةً للغاية (الشكل رقم : ٦). ومن المقبول على نطاقٍ واسعٍ أنَّ الأسلوب والديكور هما شكلان من أشكال الاتصال، ويمكن أنْ يؤدّيا دورًا نشطًا في المجتمع الذي ينتميان إليه، ثم يمكن عدّهما أدلةً قيّمةً على بنية ذلك المجتمع[25]. وممّا يُؤسَف له أنَّ هذه الأختام نادرًا ما تُعامل كما لو كانت مجرد مجوهرات" جميلة " في الأساليب الانعكاسية الحديثة لعلم الآثار، ومع هذا فإنَّ دور الأختام بوصفها أشياء ممتعة من الناحية الجمالية مقبولٌ بشكلٍ عامٍ. وقد حدّد هذا الأمر في مجموعاتٍ متأخرةٍ من الأختام، منها: الرومانية والمايسنية على سبيل المثال[26](الشكل رقم: ٧). وهناك مَنْ يرى أنَّ الختم هو ممارساتٌ تحويليةٌ، بمعنى: أنَّ التبادل ليس عملاً اقتصاديًا بحتًا، ولكنه مرتبطٌ بمجموعةٍ واسعةٍ من الممارسات الاجتماعية[27].

الخلاصة

عاشت المجتمعات البشرية حقبةً طويلةً جدًا من حياة البداوة والتنقل والتقاط الغذاء حتى الوصول إلى العصر الحجري الحديث، الذي ظهرت فيه المجتمعات المستقرة، والتي تبنت الزراعة وتدجين الحيوانات بوصفهما مرتكزًا للحياة الاقتصادية، ولكن يبدو أنَّ بعض المجتمعات فضّلت العيش بطريقة البداوة والتنقل في أواخر العصر الحجري الحديث، واستعملت هذه المجتمعات الأختام المنبسطة بوصفها رموزًا تعبيريةً بنظامٍ رمزيّ في استعمالاتٍ سحريةٍ متنوعةٍ (في المقام الأول لتجنب التأثيرات الشريرة أو سوء الحظ وطلاسم) كما أشرنا. ويلحظ أنَّ ممارسات الختم في أواخر العصر الحجري الحديث كانت تتعلق بأحداثٍ محدّدةٍ من تأثيرات الختم باستعمال القوة في تصميم الختم.

وقد سادت في العصر الحجري الحديث المتأخر في منطقة أعالي بلاد الرافدين حضارةٌ يمكن وصفها بالعالمية، حملت الكثير من الجوانب المادية المشتركة، وانتشرت في منطقةٍ شملت كلّ من شمال العراق، وشمال سوريا، وجنوب شرق تركيا. وقد انتشرت الكثير من مقومات الحياة المادية المشتركة، والتي تؤشر وجود مجموعاتٍ متفرعةٍ كثيرةٍ غير مترابطةٍ، ربّما كانت أعضاءً في مجتمعاتٍ مفترضةٍ ربطت الناس في داخل وحداتٍ حضاريةٍ مشتركةٍ.

وقد ظهرت في هذه المرحلة الأختام المنبسطة، إلا أنَّ ما يُؤسَف له أنَّ معظمها يأتي من أماكن ومواضع تبدو غير منظمةٍ في طبقاتٍ، ربّما لأنَّ عملية الدفن لم تكن الأسلوب الأمثل للتخلص من هذه الأختام. وغالبًا ما أودعت معظم الأختام بأكملها، ويبدو أنَّ بعضها قد كُسر أو أُتلف عمدًا قبل أنْ يطمر، وربما باستعمال بعض الآليات نفسها التي استعملت لصنعها. ولا يعرف على وجه اليقين كم من الوقت أُحتفظ بهذه الأختام، ولكن من غير المحتمل أنْ تكون أكثر من بضعة أجيالٍ.

إنَّ الرؤية السائدة هي أنَّ الأختام المنبسطة، مثل خلفها الأختام الأسطوانية، كانت تستعمل بمثابة أداةٍ لتحديد الملكية لحاملها، وإنَّ ما تحمله من زخرفةٍ منقوشةٍ يمثّل توقيع مالكها، إلا أنَّ ما أفرزته مواقع هذه الحقبة التاريخية في منطقة أعالي بلاد الرافدين من معطياتٍ ودلائل أثريةٍ لا يعزز مثل هذا الافتراض ولا يسنده، إذ لا يوجد دليلٌ على وجود ارتباطٍ بين الأختام وأشياء أخرى من العصر الحجري الحديث، فضلاً عن ذلك لا يوجد دليلٌ على أنَّ الأختام كانت ركنًا مهمًا في العلاقات التجارية في أواخر العصر الحجري الحديث في أعالي بلاد الرافدين، ولا يوجد دليلٌ أثريٌّ على استعمالها على نحوٍ عمليّ. ولا يوجد ما يشير إلى أنَّها كانت قد استعملت لتحديد الهوية داخل المستوطنات من بعض الأفراد أو العائلات، إذ لا تقدم المعطيات الأثرية أيّة

أدلةٍ إيجابيةٍ، فضلاً عن أنَّه ليس هناك تنوعٌ كافٍ في تصاميمها أو زخرفتها. ولا يبدو أنَّ الأختام المنبسطة يمكن أنْ تؤشر أنَّ البضائع المختومة كانت ذات مكانةٍ عاليةٍ أو أنَّ الأشياء غير قابلةٍ لتحول الملكية أو الهويات المحققة؛ بسبب الافتقار إلى الممارسات الرسمية والطبيعة العرضية للإيداع على ما يبدو، وربما تعكس بطرائق متنوعة الهويات قصيرة المدى بوصفها تمائم أو تعويذات ذات فعاليةٍ رمزيةٍ مشتركةٍ. لذا فإنَّ القول بأسبقية الاستعمال الإداري يعني تجاهل تعدد المعاني ودور الهوية في تفسيرها، والتأكيد على أنَّ للأختام المنبسطة وظيفةً إداريةً بحتةً من المحتمل أنْ يكون غير صائبٍ، ولا يفسر هذه الأدوات الجميلة ضمن سياقها الخاص. إلا أنَّ يمكن القول: إنَّ الاستعمالات الإدارية متشابكةٌ بشكلٍ وثيقٍ مع مجموعةٍ من الأغراض الأخرى منها: السحرية، والأيديولوجية، والجمالية ضمن بيئةٍ غنيةٍ من الممارسات والمعتقدات الاجتماعية.

لذا يمكن القول: إنَّ هذه الأختام تعكس دلائل رمزية متنوعة، إذ يمكن لما تحمله أنْ يمثّل مرجعيةً ماديةً لذاكرة وطنٍ حقيقيّ أو أسطوريّ، أو يمكن أنْ ترتبط بتحولٍ كبيرٍ من المفاهيم الثابتة لمكان الأجداد في المشهد الطبيعي أو المستوطن إلى مرحلةٍ أكثر انتقاليةٍ، أسلوب حياةٍ رعويّ من دون مكانٍ ثابتٍ، إلا أنّه لا يزال بحاجةٍ إلى تأطير الموقع في العالم عبر اللغة الرمزية المشتركة التي تعكسها الأختام. وقد تحمل هذه الأختام شكلاً من أشكال القوة الأعلى، وربما عناصر الأجداد في أواخر العصر الحجري الحديث والآلهة المتجسدة في العصور اللاحقة. وبهذا فإنَّها يمكن أنْ تكون مشحونةً أيديولوجيًا وتستعمل لإضفاء الشرعية المؤسسية، أو أشكالٍ أخرى من البناء الأيديولوجي، ويمكن أنْ تعبّر عن هويات المجتمع في تلك المرحلة، وغالبًا ما يكون لها أغراضٌ أخرى: سحرية أو أدوات دينية أو أشياء جمالية بحتة، ويمكنها أنْ تعطينا أيضًا معلومات حول الاهتمامات والتفضيلات وحتى معتقدات هذا المجتمع. إذ يبدو أنَّ تصميمات الأختام المنبسطة من هذه المرحلة تشير إلى لغةٍ رمزيةٍ مشتركةٍ فوق الإقليمية.

Al Malweah for Archaeological and Historical Studies, Vol 9, Issue 28, May 2022
P-ISSN: 2413-1326 \ E-ISSN: 2708-602X

الخرائط والأشكال

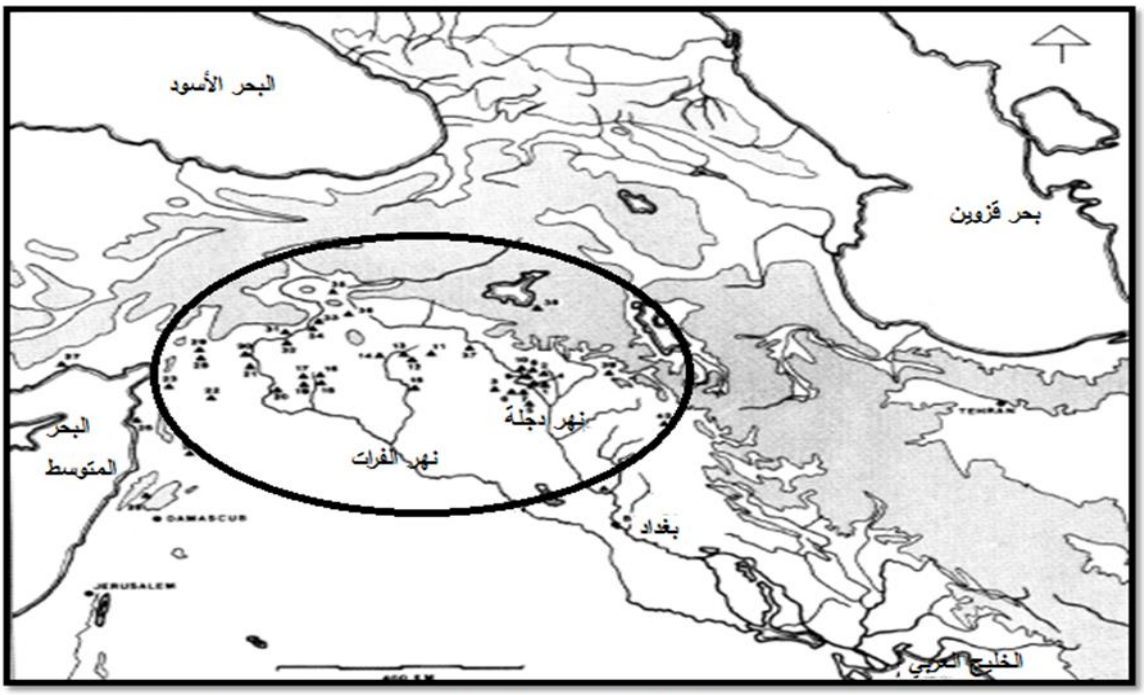

الخريطة رقم : ١. منطقة مواقع أعالي بلاد الرافدين في العصر الحجري الحديث المتأخر.

الشكل رقم : ١.

الشكل رقم : ٢ . ختم مبسط من الأريجية.

الشكل رقم : ٣.

الشكل رقم : ٤.

الشكل رقم : ٦.

الشكل رقم : ٥.

الشكل رقم : ٧.

الهوامش

References

(1) الطلبي، جمعة (٢٠٢١) أنماط الاستيطان وطرز العمارة في منطقة أعالي بلاد الرافدين في العصر الحجري الحديث. بغداد، ص ٩٩؛ عبد الرحمن، عمار (٢٠٠٦). الدمى في العصر الحجري الحديث في سوريا. دمشق. ص ٣٣.

(2) كوفان، جاك (١٩٨٤). الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألف ٩ و٨ ق.م. دمشق، ص ٤١.

(3) باقر، طه (١٩٧٣). عصور ما قبل التأريخ في وادي الرافدين على ضوء التنقيبات الأثرية في كردستان العراق. بغداد، ص ١٦.

(4) الطلبي، جمعة (٢٠٢١)، المصدر السابق الذكر، ص ٢٠٣؛ حجارة، إسماعيل (٢٠٠٣-٢٠٠٤). العصر الحجري المبكر في شمال بلاد وادي الرافدين، ٥٨٠٠-٥٨٠٠ ق.م.، مجلة سومر، بغداد. – ج ٥٢، ع ١-٢، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٩-٢٥.

(5) Porada, E (1977). of Professional Seal Cutters and Nonprofessionally Made Seals. SSANE, Malibu, p.7.

(6) الطلبي، جمعة (٢٠٢٠). الأختام الخليجية دراسة مقارنة. عمان، ص ٢٣.

(7) Collon, D (1997). 7000 Years of Seals. London.p.43/ Frangipane, M (2007). The Development of an Early State System without Urbanisation. Roma, p.22.

(8) Fiandra, E, and Frangipane, M (2007). Introduction: Cretulae: The object, its use and functions. Roma, p.16.

(9) Rothman, M. S (2007). The Archaeology of Early Administrative Systems in Mesopotamia." In Settlement and Society: Essays dedicated to Robert McCormick Adams, edited by, Elizabeth Stone, 235–254. Los Angeles: Cotsen Institute of Archaeology Publications.p.242.

(10) Moore, A M T(1995). The Inception of Potting in Western Asia and Its Impact on Economy and Society. Washington and London. p. 42-44.

(11) الطلبي، جمعة (٢٠٢١). جنوب بلاد الرافدين الاستيطان والعمارة. بغداد، ص ١٠٧-١٠٨؛

Duistermaat, K (2010). Administration in Neolithic Societies? The first use of seals in Syria and some considerations on seal owners, seal use and private property. Berlin, p.180.

(12) Fiandra, Enrica, and Marcella Frangipane (2007), Op. cit, p.16.

(13) Duistermaat, K (2010), Op. cit, p.181-182.

(14) Mallawan, M. E. L (1935). Excavations at Tall Arpachiyah, 1933. Iraq. Vol. 2, № 1. P. 91.

(15) Porada, E (1980). Introduction", Ancient Art in Seals. (New Jersey). p.4-5.

(16) Denham,S(2013). The Meanings of late Neolithic Stamp Seals in North Mesopotamia. London, p.28.

(17) Nieuwenhuyse, O (2007). and Painted Pottery: The Rise of Late Neolithic Ceramic Styles on the Syrian and Northern Mesopotamian Plains. Turnhout, Belgium: Brepols. p. 221-223.

(18) Bernbeck, R, and Nieuwenhuyse, O. Forthcoming (2008). Established Paradigms, Current Disputes and Emerging themes: The state of research on the late Neolithic in Upper Mesopotamia. Turnhout, Belgium: Brepols, p.56-67.

(19) Relaki, M (2009). Rethinking administration and seal use in third millennium BC Crete. Creta Antica 102:P. 357/ Henig, M (1997). Roman Sealstones." In 7000 Years of Seals. edited by, Dominique Collon, 88–106. London, p. 93.

(20) Goff, B. L(1956). "The Rôle of Amulets in Mesopotamian Ritual Texts." Journal of the Warburg and Courtauld Institutes 19 1/2: P.23-25/ Oates, Joan. (1978). "Religion and Ritual in Sixth-Millennium B.C. Mesopotamia." World Archaeology 102: 119–121.

(21) Collon, D (1997). Op. cit, p.27-28.

(22) Goff, B. L (1956), Op. cit, p.24-28.

(23) Paine, S (2004). Amulets: A World of Secret Powers, Charms and Magic. Thames & Hudson.p.10/- Mallawan, M. E. L(1935),p.87.

(24) Denham, S (2013). Op. cit, p.42-44.

(25) Conkey, M. W, and Christine, A. H "eds" (1990). The uses of style in archaeology. Cambridge.p.34-37.

(26) Weingarten, J (1997). Minoan and Mycenean Seals. In 7000 Years of Seals. edited by, Dominique Collon, 54–73. London.p.67.

(27) Costello, S. K (2011). "Image, Memory and Ritual: Re-Viewing the Antecedents of Writing." Cambridge Archaeological Journal 21/ 02: 248.